العصامي الموهوب

طاهر الطناحي

إذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم، وشادوا للإنسانية صروحًا عالية في مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة، وجهودهم الممتازة، فإن جرجي زيدان في المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ، فقد بلغ بالعصامية أرفع مكان في ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة. وكانت حياته أبلغ درس للشباب المكافح، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطيء، لا تحركهم همة، ولا تبعثهم إرادة على إجتياز الأمواج ليصلوا إلى ما يريدون من رقي ونجاح.

لم يقف جرجي زيدان على شاطيء الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائسًا من النور، لأن والده أمي لا يعرف فضل العلم، أو لأنه فقير لا يملك نفقات التعليم، أو لأن ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب، بل نظر بعقل الصبى النابغ، فوجد أن الرغبة الصادقة تحطم أقوى العقبات، وإن الإرادة النافذة تحقق المستحيلات، وإنه كما قال ابن الوردى:

لا تقل أصلي و فصلي أبدًا إنما أصل الفتى ما قد حصل

نعم، لم يقل جرجي زيدان أصلي و فصلي حتى تثبط همته ويأس من النجاح، بل إندفع إلى تحصيل العلوم والآداب، وشق طريقه بنفسه إلى المجد والرفعة، وإتخذ من فضل العلم خير أصل، ومن جمال الأدب أحسن نسب!

حادث أليم

نشأ جرجي زيدان في عائلة متوسطة الحال، ولكن الأيام تنكرت لها، فذاقت متاعب الفقر، فقد كان جده زيدان مطر وكيلاً على أملاك السيدة حبوس والدة الأمير مصطفى أرسلان، وكان وقتئذ في سعة من العيش، إذ كانت هذه السيدة تحكم «عين عنوب» وما يليها في لبنان في أوائل القرن التاسع عشر. فلما حمل إبراهيم باشا على سورية وفتح عكا وأراد الإستيلاء على لبنان خافت السيدة حبوس بطشه وسطوته، فعزمت على الفرار من وجهه، وطلبت من زيدان مطر أن يرافقها، فاعتذر بمن عنده من أولاد وأهل، فتركته وقد حقدت عليه. فلما ضعف شأن إبراهيم باشا عادت إلى «عين عنوب» وصادرت أملاك زيدان وأمواله، وتعمدت الحط من شأنه، فشق ذلك عليه، وأثر في صحته، ومات قبل أوانه، وقد خلف وراءه زوجة وإبنين وإبنتين أكبرهم حبيب والد جرجي زيدان.

ولما كانت هذه الزوجة الأرمل لا تستطيع البقاء بأولادها في هذه الحال بعين عنوب، فقد نزحت بهم إلى بيروت–وهي يومئذ مدينة صغيرة لا مرتزق فيها غير الإتجار وصنع ضروريات الحياة كالأطعمة والملابس ونحوها، أو خدمة الحكومة في الكتابة والجندية.

أسرة كادحة

وكان حبيب في العاشرة حين نزل مع أسرته إلى بيروت، فلم يتسع له الوقت للتعليم، فعاش أميًا، وانصرف لتحصيل الرزق وإعانة أسرته، ولم يزد

عمله على مطعم صغير في سوق ساحة البرج ببيروت. وكان هو وزوجته– على الرغم من ضيق الرزق– مثال النشاط والجد في العمل، حتى قال عنهما جرجي زيدان في مذكراته الخاصة: «نشأت في صباي وأنا أرى والدي يخرج إلى دكانه في الفجر، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله، وأرى والدتي لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء. لا تعرف الزيارات، ولا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية، فإنها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة إلا نادرًا، وإنما همها تدبير بيتها، وتربية أولادها..وقد شبت على ذلك وألفته، فغرس في ذهني: أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير..بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء. ولا يهمهم إلا ماذا يأكلون، وماذا يشربون. وإذا فرغوا من الطعام عمدوا إلى اللعب بالورق أو غيره. ولا يقدمون على العمل إلا مكرهين. يحسبون العمل عيبًا أو تعبًا. ولو عولوا عليه لكفاهم مؤونة المرض والضعف.

«فالأبناء الذين يربون بين أولئك الآباء ينشأون كسالى، ويميلون إلى الملاهي والرذائل...».

في هذه البيئة النشيطة– بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية– نشأ جرجي زيدان..ولقد كان والده كما قلنا أميًا، ولكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة ليدون حساب مطعمه، فإستخدم كاتبًا لذلك. ودعته هذه الحاجة إلى أن يرسل إبنه جرجي وهو في الخامسة من عمره إلى مدرسة حرة يديرها قسيس يدعى المعلم إلياس شفيق.

وكانت في قبو وضيع، يجلس التلاميذ فيه على حصير مبسوط على الأرض. وقد أمضى في هذه المدرسة سنتين لم يتعلم فيهما شيئًا غير فك الخط، ثم نقله والده إلى مدرسة تدعى مدرسة الشوام، فتلقى فيها مبادىء الحساب والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية، وبقى فيها نحو عامين، ثم أغلقت. فإنتقل إلى مدرسة المعلم طاهر خير الله، فمكث بها عامين آخرين

في مطعم أبيه

أصبح في الحادية عشرة، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالأمل إلى المستقبل، غير أن والده ما لبث أن دعاه إلى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم ويلاحظ الحال ريثما تجد مساعدًا غير المساعد الذي تركه وقد قال له:

«تعال يا جرجي لمساعدتي سبعة أيام أو ثمانية ريثما أجد من يقوم مقامك..» فأطاع والده وهو يعلل النفس بالرجوع إلى المدرسة، ولكن هذه الأيام السبعة إمتدت إلى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله...وقد قال في مذكراته:

«ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض العام، خافت والدتي أن يطول مقامى ويضيع مستقبلي. وكانت تكره المطاعم، وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته تلح عليه ألا يطول مقامي، وهو يعدها..فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجني، ويعيدني إلى المدرسة، فقال لها:

«إنه قد أتم دروسه، ولا فائدة من كثرة الدرس، إلا إذا كنت تنوين أن تجعليه كاتبًا أو معلمًا، فضلًا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجًا متأنقًا لا يأكل إلا بالشوكة والسكين وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الإفرنجي– وكان هذا اللباس قليلًا، وكان الأكل بالشوكة والسكين لا يزال معدودًا من عادات المتفرنجين.

ولم يقل والدي ذلك في نفور من المدنية، ولكنه كان محبًا للمحافظة على العادات الشرقية. وكان يكره التصنع والتظاهر بمظاهر الإفرنج، فإقتنعت والدتي بهذا الجواب، ولكنها ما زالت تكره أن أبقى في تلك الصناعة، وقالت لأبي: إدخله في صناعة أخرى، فإني أكره هذه الصناعة ورائحة الزفر والإنحباس في الدكان ليل نهار–لا عيد..ولا أحد فأذعن لإعتراضها..وبعد النظر قر رأيهما على أن أتعلم صناعة الأحذية الإفرنجية».

وقد كانت صناعة الأحذية الافرنجية وقتئذ حديثة العهد في بيروت، وحجتهم في إختيارها له وهو في الثانية عشرة من عمره أن بعض البيروتيين مارسوها فأثروا منها وصار لهم أموال وأملاك، وقد مكث في هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها. ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لأنها لم توافق صحته وأصابه ضعف في معدته من الجلوس الطويل على الكرسي للعمل، وخاف والداه عليه، فقررا إعادته إلى المطعم مؤقتًا ريثما يفكران في صناعة أخرى لمستقبله!

صبر جميل

تذرع الصبي جرجي زيدان بالصبر، فلم يكن أمامه في ظلام الحياة، ومحاربة الأيام غير الصبر والأمل.. ولكن أين الأمل؟..فليس حوله إلا السدود والعقبات، وإلا ما يبعث على اليأس، ولكن نفسه الكبيرة لم تعرف اليأس، لذلك تذرع بالصبر وحده. والصبر محمود، ولا سيما في هذه الحال التي لا حيلة فيها غير الصبر، كما قال ابن الرومي:

أرى الصبر محمودًا وفيه مذاهب

أرى الصبر ما لم يكن عنه مذهب

هو المهرب المنجي لمن أحدقت به

مكاره دهر ليس عنهن مهرب

صبر جرجي زيدان، وعاد إلى مطعم أبيه–لا عودة الجبان المستسلم لقسوة الأيام، ولا الضعيف البائس الذي سدت في وجهه الآمال، وأنهزم في معركة الحياة، فسئم جهاده، وقعد كئيبًا يندب حظه، ويأسى على نفسه، أو يتعزى بغيره ممن هزمهم الدهر، فأستسلموا للهزيمة، وأضاعوا أعمارهم سدى دون أن يكون لهم في الحياة العليا سهم أو نصيب... كلا، بل عاد إلى مطعم أبيه كما يعود القائد الشجاع من الميدان ليتزود بالتفكير وإنتهاز الفرص، ويضع الخطط الجديدة ليواصل جهاده، ويفوز بما قدر لهذا الجهاد الصادق من نصر فائق ومستقبل عظيم.

بارقة أمل

وكانت بيروت وقتئذ حافلة بأهل اللهو والبطالة، وكان منهم من يترددون على هذا المطعم، وكان الصبي جرجي يرى في هذا الظلام ضياء الله، ويلمح بالسريرة ما هيئ له في المستقبل من مجد علمي وأدبي، فلم يلتفت إلى ما حوله من فساد وجهل ولم ينزع إلى ريبة، ولم ينزلق في مأثمة ثم ظهرت طبقة متعلمة تخرجت من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية من أمريكية وألمانية وإنجليزية. وكانت هذه المدارس قد أنشئت على إثر مذابح عام ١٨٦٠ لنشر العلم والأدب على نهج التمدن الحديث، وعلمت طائفة من الشبان الذين تكونت منهم الطبقة المتعلمة التي كان عليها المعول في تغيير الآداب الإجتماعية في بيروت، وكان جرجي زيدان ينظر إلى هذه الطبقة وقتئذ وهو يشعر بتقصيره في مجاراتهم في التربية والتهذيب، فكان يتقد غيرة ورغبة في أن يأخذ مثلهم بنصيبه من العلم والتعليم.

يتعلم الإنجليزية في المطعم

وأتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل – أحد المعلمين في بيروت – فذكر أنه فتح مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة قبل الغروب، فرغب جرجي زيدان في تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه في المطعم، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عامًا، فصار يتردد عليه في بيته مع ١٤ تلميذًا، ومكث هناك خمسة أشهر، قال له المعلم مسعود في نهايتها أنه تعلم الإنجليزية جيدًا، فجرب قوته في مطالعة كتاب «رحلة كوك في جزائر المحيط» فرأى نفسه أقل كثيرًا مما كان يظن،

فأخذ في الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل في كثير من الأيام.

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت في نفسه ملكة التأليف التي ظهرت فيما بعد قوية عارمة، فأخذ في وضع قاموس إنجليزي عربي في ذلك الحين. وقد وصل في تأليف هذا القاموس إلى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله... على أن ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه في اللغتين العربية والإنجليزية، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب.

كتاب مجمع البحرين

وكان أول كتاب عني به في اللغة العربية وأحب إقتناءه، كتاب «مجمع البحرين» للمرحوم الشيخ ناصف اليازجي. وهو كتاب أدبي وضعه مؤلفه في ستين مقامة على طراز مقامات الحريري. وكان قد أبتاعه من أحد باعة الكتب المتجولين. ولهذا الكتاب قصة طريفة يرويها جرجي زيدان في مذكراته، فيقول:

«كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين، وأحب اقتناءه. لكني كنت أستغليه، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة، ففي ذات يوم كنت جالسًا بالمطعم، فمر غلام وبيده هذا الكتاب مستعملًا، وهو يعرضه للبيع، فأشتريته منه بتسعة قروش بيروتية أي أقل من نصف ثمنه، وفرحت به كثيرًا. ولما رجع والدي سألني عنه، فأخبرته أني أشتريته بتسعة قروش، فزعل، وقال: «أتدفع في هذا الكتاب تسعة قروش، وتبدل الدراهم بورق»!

«فزعلت ولم أجبه، ولما إنصرفنا للبيت في المساء، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء، أظهرت أني لا أريد الطعام، وذهبت للنوم، وأنا أتوقع أن يدعواني، ولا يتركاني أنام جائعًا. وسمعت والدتي تعنف والدي لإغضابي حتى نمت بلا أكل، ولكنه أصر على رأيه... وأتفق أن جاء أمين فياض أحد أصدقاء والدي للسهرة عنده في تلك الليلة، وكان يتودد إلي، فسأل عني، فقيل له أني نمت. وأغتنمت والدتي هذه الفرصة، وشكت إليه عناد والدي، فسأله عن سبب غضبه، فقال: «أنه يصرف الدراهم في شراء الورق بلا فائدة»!.. فأجابه: «أشكر الله يا أبا جرجي أن أبنك ينفق الدراهم في شراء الكتب، وليس في السكر ونحوه. إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها».

لا«و سمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم. وللحال أشتد ساعد والدتي، وقامت فأيقظتني، وأجلستني إلى المائدة، وطيبت خاطري، وكذلك والدي... ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني...».

غرام بالعلم وهمة وإرادة

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده. وكان إلى ذلك الحين لا يعرف النواميس الطبيعية كدوران الأرض والكواكب، وخسوف الشمس والقمر وأسباب السحاب والمطر وغيرها. وقد أطلع في إحدى المجلات على مقالة في سبب الخسوف والكسوف، بعثت في نفسه الرغبة في مطالعة هذه الكتب، فأقبل عليها حتى أستوعبها بهمة وإرادة قوية. وكان

وقتئذ يلبس السروال البيروتي ويعتقد أن لابسي البنطلونات أرقى عقلًا وأوسع معرفة وأصح حكمًا من لابسي السراويل، لأن أكثرهم من المتعلمين، فلما أستنار بنور العلم ضعف عنده هذا الإعتقاد، وشعر أنه إنسان له شخصية وإرادة، وصار لا يستبعد مجاراة أهل السراويل لأهل البنطلونات!

وقد كان به جنوح غريزي إلى العلم والأدب، وكانت والدته كلما رأت منه ذلك ساعدته عليه، غير أن العقبة في إخراجه من محل أبيه أن يجد عملًا آخر يستغني به عن عمله، ففكر في تعلم حساب مسك الدفاتر ليكون كاتبًا في أحد المخازن، فوافقه والده على ذلك. وكأنه رأى في هذا العمل منجاة ومهربًا من المطعم ريثما تتاح له الفرصة ليواصل جهاده في سبيل العلم والأدب، لا في سبيل المادة، ولا في سبيل الأرقام الصامتة التي يجمعها ويحسبها في هذه المحنة النفسية التي يعانيها في ذلك الحين...

يقضي على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

أمنية حققتها الأيام

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف في بيروت حتى أتقن هذا الفن في نحو شهرين، ثم وظف في أحد مخازن القماش، ولكنه لم يرتح إلى هذه الوظيفة التي لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد في مساءه إلى مطعم أبيه. وكان هذا المطعم قد أصبح مقصدًا ومرادًا للطبقة المتعلمة في بيروت، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والأدباء والصحفيين كالشيخ إبراهيم

اليازجي والمعلم عبد الله البستاني، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم، وكان يميل إلى مباحثة الطلبة الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب في «المدرسة الكلية» التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية ببيروت. وكانوا يرون فيه إستعدادًا عجيبًا، وقد يدخل معهم في بحث علمي، فيسمعون منه أقوالًا لا يعهدونها في أمثاله، فأحبوا صحبته، وأخذوا يدعونه إلى الإحتفالات التي تجري في المدرسة على أثر الإمتحانات، فيسمع الخطب، ويشاهد التلاميذ الناجحين، فيتقد قلبه غيرة وحمية، ويود لو أتيح له يومًا أن يكون بين هؤلاء الناجحين. وكان كلما حضر إحتفالًا فكر في نفسه، وما يعترضه من العقبات في سبيل تحقيق أمنيته، فيخرج منقبض الصدر، ويلاحظ عليه أصدقاؤه ذلك، فيسألونه، فلا يبوح لهم بما في سره وما تنطوي عليه جوانحه من الآلام. وذات يوم صارح أحد أصدقائه قائلًا:

– ألا يأتي يوم أقف به موقف أولئك المتعلمين؟

ثم سكت صابرًا، وأخذ يفكر فيما يوصله إلى ما يريد.

سر النجاح

من الأقوال الحكيمة التي ما زالت من دروس الحياة، وهي نتيجة التجارب قول البحتري:

لا يلبث المنوع تطلبه حتى يثوب اليك ممتنعه

وكذلك كان جرجي زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح في طلبه

حتى ثاب إليه ما منع عنه وأسلس قياده. وقد ضاعف همته، وأثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم وإجتهادهم، وإعتمادهم على أنفسهم، وفيهم من كان حلاقًا، أو حدادًا، أو نجارًا، أو عاملًا من العمال، وقد أتيح له وقتئذ أن يقرأ كتاب «سر النجاح» الذي نقله إلى العربية الدكتور يعقوب صروف، فإطمأنت نفسه، وشعر بحافز قوي إلى المضي في عزمه على تعلم الطب.

وكان قد أنتظم في عضوية «جمعية شمس البر» بيروت. وهي جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت، فأفضي بعزمه إلى بعض أصدقائه، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغي أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة في الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة، ولم يكن جرجي زيدان قد ألم بها إلمامًا يساعده على النجاح في الامتحان – هذا عدا الإمتحان في اللغتين الإنجليزية والعربية – ولم يكن أمامه إلا عطلة الصيف، وهي نحو أربعة أشهر... وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجي زيدان كان طالبًا عاديًا ، ولم تكن الأقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق. ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار، وتقدم لإمتحان القبول بمدرسة الطب، وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه بإعترافهم بنبوغه. وكانت وثبة من «سوق الطويلة» ببيروت إلى ساحة «المدرسة الكلية الأمريكية» جعلته يشعر بمواهبه وأنه لا يقل عن لابسي البنطلونات مقدرة وذكاء...!

ثورته الحرية الفكرية

انتظم في دراسة الطب في المدرسة الكلية عام ١٨٨١، وكان مثال الإجتهاد والتفوق على قرنائه. ونال في الإمتحان السنوي درجات الإمتياز، وقد حضر الإحتفال هذه المرة، لا زائرًا ولا متفرجًا كما كان في الإحتفالات الأخرى، بل ناجحًا ممتازًا يشار إليه بالبنان، وحققت له الإرادة القوية ما كان يتمنى فوقف «موقف أولئك المتعلمين». بل وقف بينهم موقف الممتازين.

وكانت السنة الثانية للطب، فانتظم مع إخوانه في الدراسة، ولكن لم يمض غير شهرين حتى وقعت حادثة الحرية الفكرية في المدرسة الكلية، وكان جرجي زيدان من أكثر المتحمسين لها، بل كان أكثرهم تحمسًا، وقد أنجلت عن خروجه مع معظم تلامذتها، غير أنه ثابر على دراسة علوم الصيدلة بعد خروجه، وأدى امتحانًا في هذه العلوم أمام لجنة حرة تألفت في بيروت من أشهر أطباء سورية ولبنان تحت رئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشي المعسكر، ومن أعضائها الدكتور فانديك، والدكتور لويس، والدكتور رابوطاجي، وغيرهم. ونال شهادة الصيدلة في العلوم الآتية: اللغة اللاتينية، والطبيعيات، والحيوان، والنبات، والجيولوجيا، والكيمياء العضوية والمعدنية، والتحليل الكيميائي، والمواد الطبية، والأقرباذين العلمي والعملي.

هجرته إلى مصر

وبعد أن حصل على هذه الشهادة من هذه اللجنة الطبية الحرة أعتزم أن يتم دراسة الطب البشري في مدرسة قصر العيني بمصر، و كان ناظرها وقتئذ الدكتور عيسى باشا حمدي، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة في الأيام الأولى من الرحلة إلى البلاد المصرية، ولقد غامر بمستقبله في سبيل الحرية الفكرية التي ثار لها هو وزملاؤه في المدرسة الكلية، وكانت أول ثورة وإضراب للطلبة في الشرق، إذ كان يتعلم الطب ليعيش، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله في العلم، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما أنقطع حبل آماله، وأن جهاده ذهب سدى، ولكن ما لبثت عزيمته أن إستردت قوتها، وما عتمت إرادته أن تغلبت على ضعف نفسه، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل اليه، فأقرضه ستة جنيهات ضمها إلى ما كان معه من قليل النفقة، وسافر إلى مصر، ولم ينس أريحية هذا الجار فرد له الجنيهات الستة بعد عام حينما مارس العمل لأول مرة في مصر.

إشتغاله بالصحافة

وكانت سنه حينما هاجر إلى البلاد المصرية، لا تزيد عن إثنتين وعشرين سنة – إذ ولد في ١٤ ديسمبر عام١٨٦١ – فركب إحدى البواخر التجارية. وهي أول مرة يركب فيها البحر، ووصلت به الباخرة صباحًا إلى الإسكندرية في أكتوبر عام ١٨٨٣. وكان ذلك عقب الثورة العرابية، فشاهد هذه المدينة في حالة يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التي حلت بها من العدوان البريطاني. وكان لذلك أثره فيما بعد

حين دون حوادث هذه الثورة في كتابه «تاريخ مصر الحديث».

وبعد أن استراح بالإسكندرية قليلًا شخص إلى القاهرة، وتقدم لمدرسة الطب. غير أن طول المدة لنيل شهادتها، حول عزمه عن صناعة الطب إلى صناعة القلم، فتولي تحرير «جريدة الزمان». وكانت حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة. وقد مكث في تحرير هذه الجريدة عامًا أو يزيد. ثم استقال منها ليعمل في الحملة النيلية إلى السودان.

الفلسفة اللغوية

سافر إلى السودان مترجمًا في الحملة النيلية لإنقاذ غوردون باشا ، فقضي فيه عشرة أشهر شهد في أثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبي طليح والمتمة وغيرها. وقد قاسي في هذه الرحلة ألوانًا من المشقات، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر، ولما عاد إلى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده... غير أنه لم يستقر في مصر بعد عودته من الحملة، بل سافر إلى بيروت عام ١٨٨٥، فأنتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضوًا عاملًا فيه فمكث في بيروت عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية، فدرس العبرانية والسريانية. ووضع على أثر ذلك أول كتاب له، بل أول كتاب من نوعه في الشرق، وهو كتاب «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين...!

وفي هذه الأثناء ألف أحد أصدقائه رواية سماها «رواية البطلين» جعل جرجي زيدان أول بطليها، وجعل غوردون باشا البطل الثاني. وقد وصف

المؤلف فيها عصامية جرجي زيدان وإنتصاره في معركة الحياة، وبطولته في التغلب على العقبات حتى وصل إلى ما يريد مع المحافظة على الفضائل والآداب الراقية.

عمله في «المقتطف»

كانت مجلة «المقتطف» في ذلك الحين هي أرقى المجلات العلمية وأشهرها في الشرق العربي، وكانت تجتذب أقلام العلماء والأدباء، وقد راسلها جرجي زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، فقدرت جهوده في صناعة الفكر والقلم. وكان قد سافر في صيف عام ١٨٨٦ إلى عاصمة الإنجليز، وتردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطاني ثم عاد في الشتاء إلى مصر، فاختير مديرًا عامًا لإدارة مجلة «المقتطف» فقبل، ومكث في هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شؤونها الإدارية ويساهم في التحرير ببحوثه القيمة.

ولعل من الطريف أن نذكر أن جرجي زيدان – في أول نشأته وهو في بيروت – بعث بمقالة إلى هذه المجلة ينتقد فيها الآباء الذين لا يعلمون أولادهم، وكانت أول مقالة كتبها في حياته، فلم تنشرها المجلة وصادف أن جاءه مديرها في الصيف، وتناول طعامه في مطعم أبيه، فسأله عنها، فأجابه: «أنه يرجو أن تكون المقالة الثانية خيرًا من الأولى...!» وأراد الله أن يكون جرجي زيدان مديرًا للمقتطف بعد نحو عشر سنوات من هذه الحادثة.

إنصرافه للتأليف

مكث جرجي زيدان عامين مديرًا للمقتطف، وكان مرتبه في تلك الوظيفة ثمانية جنيهات في الشهر. ولعل القارئ يظن أن هذا المبلغ في ذلك الزمان يعد مبلغًا ضخمًا إذا قيس بقيمة العملة في عصرنا الحاضر، وهذا صحيح إذا كان جرجي زيدان تناوله لقاء أعمال إدارية فقط أو أعمال تحريرية فقط، أو أعمال خاصة بالمطبعة وشؤون الورق والحبر والبريد والمشتركين والعمال فقط، بل كان يتناوله لقاء هذه الأعمال كلها، فقام بها خير قيام، ثم رأى وقته قد ضاق عما يغرم به من متابعة البحوث والتأليف، فأستقال من المقتطف، وأنصرف لوضع نفائس المؤلفات، فألف كتاب تاريخ مصر الحديث في جزأين وعانى في تأليفه صعوبات جمة، وفي عام ١٨٨٩ ألف تاريخ الماسونية العام. وهو أول كتاب من نوعه كتب في العربية، ثم كتاب التاريخ العام وهو مختصر تاريخ آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة.

وفي أواخر تلك السنة إنتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بمصر ليتولى إدارة التدريس العربي فيها، فتولاها سنتين. وفي أثناء هذه المدة ألف رواية: «المملوك الشارد». وهي أولى رواياته التاريخية، فصادفت إقبالًا كبيرًا حتى طبعت عدة طبعات. وكانت سنه لا تزيد عن ثمانية وعشرين عاما!..

تأسيسه للهلال

أغرم جرجي زيدان بتحصيل العلوم والآداب، فدرس كثيرًا، وقرأ طويلًا، وكان جهده هو أستاذه الأكبر، وإعتماده على نفسه هو رائده الأعظم. وكما وهب نبوغًا في دراسة العلم والتاريخ وتحصيل الأدب، وهب ملكة ممتازة، ونبوغًا فائقًا في البحث والتأليف، وصبرًا عجيبًا على مشاقهما... وقد عرف في التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان في ذكائهم وعلمهم، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثارًا، أو لم يخلفوا كثيرًا من الآثار النافعة تتناسب وما أشتهروا به من نبوغ وعبقرية.

ولكن جرجي زيدان النابغة بعد أن درس وأطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعًا للناس وللغة العربية وللعرب والإسلام بوجه خاص، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل في تاريخ الشرق، بل في تاريخ العالم الذين أضافوا إلى تراث العقل الإنساني ثروة جديدة.

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه في أداء رسالته، فقد عني بأن تكون له مطبعة، واستحضر في ذلك الحين بعض الأدوات المطبعية، وتنحى عن التدريس وإدارته في المدرسة العبيدية. وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة إلى جانب ما يضعه من مؤلفات.

وفي أول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من هذه المجلة. وقد صدره بمقدمة قال فيها : «لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها، وخطة يسير عليها، وغاية يرمي إليها. أما فاتحتنا فحمدًا لله

على ما أسبغ من نعمه، وأفاض من كرمه. والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب. وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا، والصدق في لهجتنا، والإجتهاد في وفاء حق خدمتنا. ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر.

«أما الغاية التي نرجو الوصول إليها، فإقبال السواد على مطالعة ما نكتبه، ورضاؤهم بما نحتسبه وإغضاؤهم عما نرتكبه، فإذا أتيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا، فننشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا...». وبعد أن تحدث عن أبواب المجلة قال: «وقد دعونا مجلتنا هذه الهلال لثلاثة أسباب: أولًا– تبركًا بالهلال العثماني الرفيع الشأن... ثانيًا– إشارة لظهور هذه المجلة مرة في كل شهر. ثالثًا– تفاؤلًا بنموها مع الزمن حتى تتدرج في مدارج الكمال. فإذا لاقت قبولًا وإقبالًا أصبحت بدرًا كاملًا بإذن الله».

خدماته للعرب والإسلام

وكان في النشأة الأولى لهذه المجلة يتولى كل أمورها بنفسه من تحرير وإدارة ومكاتبات مما لا يستطيعه إلا جماعة من الرجال، ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل. ولما أتسعت شؤونهما عهد بإدارتها إلى شقيقه، وأستخدم معه آخرين وعكف هو على التحرير والتأليف. وقد وضع بعد تأسيس الهلال روايات تاريخ الإسلام، وكتاب التمدن الإسلامي في خمسة أجزاء وكتاب العرب قبل الإسلام، وعلم الفراسة الحديث، ومشاهير الشرق في جزأين، وتاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، وأنساب العرب القدماء، وطبقات الأمم، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ إنجلترا.

وقد صدر من روايات تاريخ الإسلام ثماني عشرة رواية عدا أربع روايات خارجة عن هذه السلسلة، وهي: المملوك الشارد، وأسير المتمهدي، واستبداد المماليك، وجهاد المحبين، وقد نقلت معظم مؤلفاته إلى كثير من اللغات.

والذي يطلع على آثار هذا العصامي النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف أستطاع أن يقوم بها مع أعماله في الهلال خلال إثنين وعشرين عاما فقط، ولكنه النبوغ الذي لا يقف عند حد ولا يعرف للزمن حسابا، والجهود المضنية، والنفس العظيمة التي يتعب الجسم في تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى: ولقد ذابت روح زيدان وفني جسمه قبل الأوان، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين.

لم يعرف جرجي زيدان التعب طول حياته، وقد أنتفع ونفع بكل ساعة من وقته، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة. ولقد جاءه يوما مستشرق يزوره، فلما رآه سأله مستغربًا: «أأنت جرجي زيدان؟» فأجابه: «نعم» فقال المستشرق: «كنت أنتظر أن أرى شيخًا ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفانك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة»!

هذا هو العصامي جرجي زيدان: نشأ فقيرًا سدت أمامه أبواب المعارف، فلم يحل الفقر ولا تحالف الشدائد والعقبات دون ما يريد، ووثب من الصناعة والعمل إلى عبقرية الفكر ومجد العلم والأدب، ومن ساحة البرج ببيروت، إلى ميادين الثقافة العليا، ومن بيروتي صغير لابس السروال،

إلى عالم كبير ونابغة جليل يفخر به الشرق أجمع ومن فتى مجهول يكافح في سبيل العيش وفي سبيل التعليم، إلى كهل عظيم يضع أنفس المؤلفات في تاريخ الشرق وتاريخ الاسلام و آداب اللغة العربية ويبتكر من المؤلفات ما لم يسبقه إليه أحد، و يخطب وده العلماء والأدباء ومعاهد العلم الكبرى، وتنتدبه الجامعة المصرية القديمة ليدرس لطلبتها تاريخ الإسلام، ثم تحتفظ بها وضعه لها من دروس حين وقف في سبيل إنتدابه الجامدون!

هذا هو العصامي جرجي زيدان الذي سجل تاريخ الشرق إسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين، والذي صح فيه قول القائل:

إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي